مهمّاتٌ تربويّة

تقديم

أنا هيّ بنت عيد السمري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الثامن عشر
سورة النور 41- 46

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعل القرآن ربيعًا لقلوبنا ونورًا لصدورنا وجلاء لأحزاننا وهمومنا، اللهم آمين! لا زلنا نتذكر قول نبينا الكريم: «إن للهِ أَهلِين من الناسِ قالوا: من هم يا رسولَ اللهِ؟ قال: أهلُ القرآنِ هم أهلُ اللهِ وخاصتُه.»[1] فعُلم من ذلك أن هؤلاء لهم علاقة بالقرآن تجعلهم يتصفون بصفات الممدوحين، وينفعلون بأفعالهم، ويرغبون في أحوالهم، وينزجرون ويبتعدون عن صفات المذمومين، خائفين، راجين، متوكلين على رب العالمين أن ينجيهم، وهو أعلم بأحوالهم، فإذا سمعوا في القرآن مدحًا، اشتاقت نفوسهم لصفات الممدوحين، وإذا سمعوا في القرآن ذمًا انزعجت نفوسهم فسارعوا بمعرفة صفات المذمومين، فهربوا ما استطاعوا من هذه الصفات، بذلك يكون الإنسان من أهل القرآن، يسمع ما يتلى عليه، ويتأمل ما يقرؤه، ويجعل صفات المدح مقصده فيُقبل عليها،

---

[1] () أخرجه ابن ماجة (215)، وأحمد (12292).

وصفات الذم مهربه فيسارع بالبعد عنها، فيكون حقًا من أهل القرآن. وكلما قرأنا في القرآن وسمعنا خطابات من الرحمن علمنا أن أهل القرآن عليهم أن يفهموا أن هذه الخطابات موجهة لهم، فليستوعبوها ويفهمها ليكونوا من أهل هذا الكتاب العظيم، أهل الله وخاصته. ومن ذلك ما نتدارسه سويًا اليوم في أحد المهمات التربوية التي تؤكد ما مضى معنا كثيرًا في كون أن الله يحب منا أن نهتدي للصراط المستقيم، وجعل لهذا الصراط المستقيم دلالات وعلامات أرشدنا إليها. ومن ذلك ما سنسمعه، والحمد لله قرأناه في كتاب الله ولا زلنا نقرؤه في سورة النور، هذه السورة التي أرشدت إلى نور الله، وبيّنت مَن ينتفع من نور الله، ومَن يغمى عليه هذا النور فلا ينتفع منه. وهذه السورة فيها ثلاثة أمثال مضروبة من أعظم الأمثال القرآنية، ففيها:

- مثل النور في قلب المؤمن الذي مثله وشبهة رب العالمين (كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ) وأن هذا السراج يوقد من زيت شجرة (زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ) هذا مثل عظيم على النور في قلب المؤمن.

- ثم ضرب مثلًا لأولئك القوم المغضوب عليهم، الذين أعمالهم التي عملوها مثلها مثل السراب، عندما يحتاجون لها لا يجدونها شيئًا، بل يجدون الله عندها والله سريع الحساب.

- وضرب الله أيضًا مثلًا للضالين، كما ضرب مثلًا للمغضوب عليهم الذين يعملون أعمالًا يظنون أنها تنفع وهي تكون كالسراب، ضرب مثلًا للضالين الذين هم في ظلمات في بحر لجّي، الظلمات متراكمة، (يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا).

فبعدما ضرب الله هذه الأمثال وبيّن -عزَّ وجلَّ- أن هذا النور يمكن لكل أحد أن يقتبسه، نور الله يمكن لأي أحد أن يأخذ منه بشرط أن يكون صادقًا مقبلًا متأملًا (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، ذكر صفة هؤلاء المنتفعين كيف أنهم صادقون (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) هؤلاء الصادقون المنتفعون من آيات رب العالمين، المنتفعون من النور (يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ) صادقون ما انشغلت

نفوسهم بالدنيا (لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ) يفكرون تفكيرًا عميقًا ويعلمون أن (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ)، (يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ).

هذا الوصف له طريق دلّنا عليه رب العالمين؛ ولذلك بعدما انتهت هذه الأمثال، وقارن الإنسان المؤمن بين أولئك القوم الذين جعل الله في قلوبهم نورًا وبين من عنده النور لكنه ضلّ عنه وذهب إلى السراب، وبين من هو في الظلمات، بعدما يقرأ المؤمن هذا ويرى وصف أنوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين المغضوب عليهم والضالين، يقرأ ما يدلّه على الطريق الذي يقتبس به النور، ويتحرر من الظلمات، فإذا طلب الحق وسلط نورًا من قلبه وطلبه وكان صادقًا في ذلك، ونظر إلى كل شيء حوله سيراه بطريقة مختلفة، سيرى آيات مرئيات تدل على كمال الله، فمَن صدق في النظر إلى هذه الآيات كان قلبه مكانًا لهذا النور، ومن انشغل وتلهى قلبه (لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ) بالدنيا، فهذا لا يرى الآيات البينات، ومن ثم لا يهتدي إلى الطريق المستقيم.

لذا عندما نبدأ بسماع الآيات من الآية: (41) حتى (46)، نجد أن في الآية: (46) قال تعالى: (لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ) من يستفيد منها؟ (وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) يستفيد منها مَن شاء الله أن ينفعه بها، والله مشيئته مرتبطة بحكمته، وهو لا يظلم أحدًا من الخلق، فمن اهتدى زاده الله هدى، ومن زاغ، أزاغ الله قلبه، فأنت برهِن على صدق إرادتك للهدى لماذا؟ لكي ترى ما سيتبين في هذه الآيات الكريمات:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (44) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، معنى هذا أن المؤمنين المتقين يعلمون علم اليقين أن رب العالمين لا يظلم أحدًا، وأن مشيئته مرتبطة بحكمته، فهو كما أخبرنا -سبحانه وتعالى- عن نفسه بكماله وجلاله وعظمته، وأخبرنا أنه لا يظلم أحدًا، أخبرنا (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (29) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)، الله عليم حكيم ومشيئته مرتبطة بحكمته، فمَن صدق في إرادة الحق دلّه رب العالمين. ننظر بالإجمال إلى شيء من آيات الله التي أنزلها -عزَّ وجلَّ- وجعلها في الكون وأرشدنا للتأمل فيها في كتابه وجعلها حولنا منثورة وواضحة.

الآية: (41) أتت مباشرة بعد الأمثال في سورة النور، وابتدأت بقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ)، ومثلها (أَلَمْ تَرَ) في الآية: (43)، وأول سؤال يخطر في بالنا: هذا الخطاب لمن؟ للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- أو أنه عام شامل لكل من يصلح له الخطاب؟ والله أعلم إن الله -عزَّ وجلَّ- يخاطب الخلق جميعًا.

عندما يقول لنا: (أَلَمْ تَرَ) أيها المخاطب، بمعنى: "قد رأيت"؛ لأن همزة الاستفهام دخلت على النفي، فهي تفيد التقرير. بكلام سهل مثلما نقرأ: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) يعني قد شرحنا لك صدرك، الله يقرر بذلك أنه شرح صدر النبي. وهنا (أَلَمْ تَرَ) بمعنى: قد رأيت، هل رأينا هذا بأبصارنا؟ الرؤية يُقصد بها الإبصار ويُقصد بها العلم. لذلك يمكن أن تكون بصرية ويمكن أن تكون علمية -كما يقول أهل العلم-، فكأن الآية: "ألم تعلم؟"، ويمكن أن يكون هذا العلم عن طريق أنك رأيته بعينك أو سمعته بأذنك، أو استنتجت بعدما تعقلت وفكرت؛ لذلك قال تعالى: (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا). ترى بعينك وتسمع بأذنك وتستنتج بتعقلك وتفكرك.

فكأنه يقال: "ألم تعلم علمًا ناتجًا عن أحد هذه الأمور الثلاثة، أن الله يسبح له من في السماوات والأرض؟" وهنا كأنه يأتي سؤال: كيف علمنا أن الله يسبح له مَن في السماوات ومَن في الأرض؟ وهل هذا شيء يمكن أن ندركه؟ نبتدئ الإجابة بتقرير معنى التسبيح، وهل هذا التسبيح يفعله مَن في السماوات ومَن في الأرض بلسان الحال أم بلسان المقال؟ وهذا قد مر كثيرًا، أن كل مَن في السماوات والأرض

وما بينهما فهو يسبح الله تسبيحًا بلسانه، بلسان المقال والله أعلم كيف يكون ذلك، ومن ذلك الطير كما في الآية (وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ)، معنى ذلك أن الجميع يشترك في التسبيح. يترتب على ذلك أن نعتقد أن هؤلاء عندهم إدراك، نبتدئ بالطير، تسبح وتصلي صلاة وتسبيحًا يعلمه الله ونحن لا نعلمه، كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ). وعلمنا أن الطير وكذلك الجبال كانوا يؤبون التسبيح ويرجعونه لداوود -عليه السلام-، ولو لم يكن لهم إدراك لما قال الله -عزَّ وجلَّ-: (وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)[2] فأثبت خشيته للحجارة والخشية لا تكون بدون إدراك.

ومن ذلك قوله تعالى: (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ).

ومن ذلك أن الله قد أخبرنا أنه عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين وأشفقن، فالإباء والإشفاق لا يكون إلا من إدراك، والله أعلم كيف يكون هذا الإدراك وكيف تكون هذه الصلاة التي يصليها الطير، لكننا نعلم ونرى ببصيرة قلوبنا أن هذه المخلوقات جميعًا، كلها شاهدة

---

[2] () البقرة: 74.

على عظمة الله، وكلها مدبرة بتدبير الله. حتى أننا في سورة الحديد -مثلًا- من بين السور التي تشير إلى تسبيح كل شيء، نجد أن الله يقول لنا: (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ما في السماوات والأرض يسبح وهو تحت عزّة الله، فهو مفتقر لله، لا يستطيع أن ينفعل أي انفعال إلا والله بعزّته يعطيه القوة على هذا الانفعال، ويسمح له بهذا الانفعال -سبحانه وتعالى- وهو الحكيم في كل أفعاله.

فنحن سمعنا هذا في القرآن والسنة وعلمناه من ذلك ورأينا نظام الكون فعلمنا أن كل شيء يسبح بحمد الله وهو تحت عزّته وقهره وسلطانه.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ) التي بين السماوات والأرض، ما بهن؟ (صَافَّاتٍ) أجنحتها في الهواء، وهذا يؤكد لنا أن هذه الطير ما أمسكها في جو السماء إلا الله، وهذا قد ورد في القرآن مكررًا، أن إمساكه الطير -صافات أجنحتها في الهواء وقابضات لها- من آيات قدرته، كما في سورة الملك: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ).

ومثلها في سورة النحل إشارة إلى ذلك: (كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) وهنا نرى في كلام الشيخ السعدي -رحمه الله- دلالة هذه الجملة، يقول:

"نبه تعالى عباده على عظمته، وكمال سلطانه، وافتقار جميع المخلوقات له في ربوبيتها،" بمعنى أن كل المخلوقات تحت عزة الله، فبعزته -سبحانه وتعالى- تسير، وهي له فقيرة لا تستطيع من أمرها شيء، فهو الذي يدبرها يسيرها ويعطيها الحول والقوة على القيام بوظيفتها، سبحان الله! تنظر للطير فتراه بعين المؤمن الذي يعلم أنه ما طار إلا لأن الله أعطاه القوة، وما مد أجنحته صافات ولا قبضها إلا والله يمسكه، فكل المخلوقات مفتقرة إلى الله، لو ما أمسكها الله، لو ما أعطاها الحياة ولو ما جبرها ورزقها لم تكن شيئًا.

"وعبادتها فقال: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) من حيوان وجماد (وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ) أي: صافات أجنحتها، في جو السماء، تسبح ربها.

(كُلٌّ) من هذه المخلوقات (قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) هنا سنجد أقوالًا، مَن الذي علم؟ سنجد قولين، أي: كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به، قد علم كل مخلوق، وقد ألهمه

الله تلك الصلاة والتسبيح، إما بواسطة الرسل، كالجن والإنس والملائكة، وإما بإلهام منه تعالى، كسائر المخلوقات غير ذلك، وهذا الاحتمال أرجح، أن يكون قد علم كل مخلوق كيف يصلي وكيف يسبح، بدليل قوله: (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) هذا دليل، هي علمت الصلاة والتسبيح والله علم جميع أفعالها، أي: علم جميع أفعالها، فلم يخفَ عليه منها شيء، وسيجازيهم بذلك، فيكون على هذا، قد جمع بين علمه بأعمالها، وذلك بتعليمه، وبين علمه بأعمالهم المتضمن للجزاء. قد علم كل مخلوق صلاته وتسبيحه من تعليم الله، وعلم الله منهم الصلاة والتسبيح فيجازيهم عليها، واحتمال آخر يذكره الشيخ: ويحتمل أن الضمير في قوله: (قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) يعود إلى الله، وأن الله تعالى قد علم عباداتهم، وإن لم تعلموا -أيها العباد- منها، إلا ما أطلعكم الله عليه. فيصبح العلم في المرتين لله، وهذه الآية كقوله تعالى: (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)" ظهر لنا أن كل شيء يصلي ويسبح لله عزَّ وجلَّ.

وقد ورد عند الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- عن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- أن نوحًا

-عليه السلام-، أوصى ابنه عند موته بلا إله إلا الله، وقال له: "فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو كن في حلقة مبهمة قصمتهن." وأوصاه أيضًا بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق.

«إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ: آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكَ عَنْ اثْنَتَيْنِ: آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ وَبِهَا يُرْزَقُ الْخَلْقُ وَأَنْهَاكَ عَنْ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ»[3]

سبحان الله، إشارة إلى أن كل شيء يسبح بحمد الله، وبهن يرزق كل الخلق، قوة على القيام بالعمل، وأرزاق تُطعم وماء يُشرب، سبحان الله.

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) مطلع بالخلق عالم بأحوالهم، مع علمه -عزَّ وجلَّ- وتسبيح كل شيء له، فهو الملك الذي له

---

[3] () أخرجه أحمد (6583).

ملك السماوات والأرض وهو الملك الذي سيرد عبيده إليه ويحاسبهم، يقول الشيخ:

"فلما بيّن عبوديتهم وافتقارهم إليه -من جهة العبادة والتوحيد- فهم يقولون سبحان الله وبحمده، وكما في الحديث بها يُرزقون، بيّن افتقارهم، من جهة الملك والتربية والتدبير فكل شيء ملك الله، وكل شيء يقع بتدبير من الله، فهو الملك ليس مثله أي ملك، لا يغفل عن دقائق مملكته، فيدبر الخلق جميعًا، إنسهم وجنّهم، وبهائمهم وزرعهم، جماداتهم ومحركاتهم، كلها ملكٌ لله وكلها يدبرها الله، فقال: (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) خالقهما ورازقهما، والمتصرف فيهما، في حكمه الشرعي [والقدري] في هذه الدار، تجري أقداره على الخلق وأرسل رسله وبيّن شرعه، (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) يظهر وفي حكمه الجزائي، بدار القرار، بدليل قوله: (وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) أي: مرجع الخلق ومآلهم، ليجازيهم بأعمالهم." هذا معناه أن هذه المخلوقات جميعها ومن بينها الإنسان لا تستطيع أن تخرج عن ملك الله وتدبيره، وإذا كان الأمر بهذه الصورة، فليكن من صاحب القرآن الذي يسمع هذه الأخبار عن الله ما له إلا أن يرضى بتدبير الله وأن يفوض الأمر لله، وأن يجعل الله في نحور الأعداء، أن يطلب

من الله كل ما يحتاجه، فإن لله ملك السماوات والأرض، مدبر الخلق جميعهم -سبحانه وتعالى- (وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ).

ويأتي ما يؤكد لنا أن الملك ملكه وأنه على كل شيء قدير وأنه يدبر كل شيء فلا تظن أن شيئًا يدبر نفسه، حتى الإنسان الذي يظن أنه هو الذي يخطط ويدبر، إذا كان فطينًا سيرى بنور فطرته وبنور الإيمان أنه ربما دبر تدبيرًا خاب بسببه، ويرى بنور الفطرة والإيمان أنه ربما ترك التدبير فجاءه الأمر أحسن ما يكون. هذه سنة الله، أن من أخذ بالسبب الأعظم وهو التوكل على الله، ناوله الله أسباب الفلاح والصلاح والمصالح في الدنيا والآخرة، ومن اعتمد على السبب واعتمد على نفسه ذاق مره، فنحن نتوكل على الله، (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا) ولله ملك السماوات والأرض؟ فهو الذي يدبر كل شيء في السماوات والأرض، سبحانه وتعالى.

ومما يدبره الله، هذا السحاب، فلننظر إلى تصريف الله لهذا السحاب (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ) وحده لا شريك له -سبحانه وتعالى- وهذا مما تشاهده ببصرك، (يُزْجِي سَحَابًا) يسوق، كما يقول الشيخ السعدي:

"أي: ألم تشاهد ببصرك، عظيم قدرة الله، وكيف (يُزْجِي) أي: يسوق (سَحَابًا) قطعًا متفرقة والإزجاء يُستعمل في سوق الشيء الثقيل برفق، فهذا كأنه عظيم والله يجمعه، يزجي سحابًا بعد أن أنشأه من العدم وبعد أن كان ضعيفًا متفرقًا، يؤلف الله بينه.

(ثُمَّ يُؤَلِّفُ) بين تلك القطع، فيجعله سحابًا متراكمًا، مثل الجبال. سبحان الله! فتراكمه بعضه على بعض بعد أن كان في غاية الرقة، مما يدل على عظمة الله وتدبيره لكل شيء، وإنما أمره أن يقول له: "كن" فيكون، سبحانه وتعالى. لكن ما ألطفه -سبحانه وتعالى- يخبرنا بهذه الحقائق لأجل أن ننشغل بها وننظر للسماء فنجد فيها هذا السحاب بعد أن كان رقيقًا جمّعه الله، فنقول: نشهد ألا إله إلا الله.

(فَتَرَى الْوَدْقَ) أي: الوابل والمطر، يخرج من خلال السحاب، فتوق حدثت بسبب التراكم وبسبب عصرها، نقاطًا متفرقة، ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر، فتمتلئ بذلك الغدران، وتتدفق الخلجان، وتسيل الأودية، وتنبت الأرض من كل زوج كريم،" فهذا يخرج من خلاله، والودق بمعنى المطر.

ويوجد نوع آخر: (وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ) والبرد الماء المنعقد، فإما ينزل هذا الوابل والمطر نقاطًا متفرقة يحصل بها الانتفاع، أو هذا السحاب يصبح ثلجًا، بردًا، فيكون من ذلك السحاب بردًا يتلف ما يصيبه وتارة ينزل الله من ذلك السحاب بردًا يتلف ما يصيبه. هذا من اختيار الله وشانه -سبحانه وتعالى- فهو الذي له ملك السماوات والأرض، (وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ).

(فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ) وهنا تأكيد على حكمته العظيمة، بحسب ما اقتضاه حكمه القدري، وحكمته التي يُحمد عليها،" كأنه يقال: انظر كيف مكان واحد وجو واحد ومادة واحدة، ثم يخرج منها مطر ينفع وبرد يمكن أن يكون سببًا للهلاك.

بهذا يُعلم أنه يمكن أن يكون من الشيء الواحد شؤون متعددة متضادة، في مسألة الهداية لأن هذه هي التي تشغلنا (يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ). قد يقال: "هذا ظروفه هي التي أدت أن يكون بهذه الصورة" نخرج من قوله تعالى: (فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ) إلى معنى (يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)، الذي سيأتي في الآية: (46)، كأنه يقال:

إذا نظرت إلى هذه السماء وهذا السحاب وهذه المادة نفسها، لكن قد ينزل مطر لطيف يستفيد منه الناس، وقد ينزل برد يكون سببًا للهلاك، هذا يشبه ماذا؟ مثاله حينما يكون هذا والد منحرف، عنده ولدان، نفترض أنه تاجر مخدرات، أو واقع في الآثام، ثم نرى أبناءه، الأول نجده مثل والده، فيقال له: "ما الذي دفعك لأن تكون هكذا؟" فيقول: "ماذا أفعل؟ خرجت وجدت والدي على هذه الصورة وفعلت مثله!" كأنه لا يد له. ثم نرى أخاه وقد استقام شأنه واستقر وضعه فيقال له: "ما الذي دعاك لهذا ووالدك هذا وضعه؟" يقول: "رأيت والدي وما هو فيه من شقاء فآليت على نفسي ألا أفعل مثل فعله لكيلا أصل إلى نتيجته" فأمر واحد قد يكون سببًا للهداية وقد يكون سببًا للضلال على حسب تفكير الإنسان وعلى حسب نظره للأمور؛ لأن الظروف في هذه القصة واحدة، لكن كلّ رأى مسؤوليته أو لم يرَ مسؤوليته على حسب تفكيره، فالأول رأى أنه لا يستطيع أن يخرج عما عليه والده، والثاني رأى أنه يجب أن يهرب من الشر الموجود فهرب منه، وكذلك (يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ) سبحانه وتعالى.

يتأمل المتأمل هذه الحالة ويقول: سبحان الله! الله أعطى الناس جميعًا الفرصة، والناس بعينهم يرون المطر يخرج من

المخارج، وكيف ينزل لطيفًا ينفعهم، ويرون السيول والبرد كيف يمكن أن يُهلك، يكسر زجاج السيارات، يدخل على البيوت فيكسرها بقوة القذف، يمكن أن يكون سببًا لإهلاك المحاصيل، فسبحان الله، كيف أن شيئًا لطيفًا يأتي بنتائج صعبة وخطيرة مثل هذه.

ثم يقول لنا رب العالمين: "(يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ) أي: يكاد ضوء برق ذلك السحاب، من شدته (يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) هذا الضوء يمكن أن يقتبس منه أهل الإيمان النور فيسيرون في نور، ويمكن أن يكونوا مثل حال هؤلاء الذين احتجوا بحجج باطلة فما استفادوا من النور أبدًا. لمعانه يمكن أن يذهب بالبصر، وهذه آية عظيمة على قدرة الله. أليس الذي أنشأها وساقها لعباده المفتقرين، وأنزلها على وجه يحصل به النفع وينتفي به الضرر، كامل القدرة، نافذ المشيئة، واسع الرحمة؟" بلى والله! ومن أفعاله -عزَّ وجلَّ- أنه يقلب الليل والنهار وكل الناس يعيشون هذا الأمر وكل الناس يفهمونه بأوسع ما يكون من معنى، لكنه عبرة لأولي الألباب، لأصحاب البصائر، الذين تدلهم بصائرهم والنور الذي في قلوبهم على قدرة الله، فينظرون إلى أن الله يقلب الليل والنهار. وتقليب الليل والنهار يمكن أن يكون كما نرى وندرك؛ يأتي النهار ثم ينقلب ويأتي

الليل، ويمكن أن يكون يقلب الليل والنهار، بمعنى ما يحدث فيها من حوادث وتغييرات، فيكون الناس في أمن وما يجدون أنفسهم إلا خائفين، ويكونون في خوف فيبدل الله خوفهم أمنًا. فهذا كله أنواع من التقليب، وربما يكون التقليب أيضًا تقليب الفصول، يطول الليل والنهار مرة في وقت الصيف ومرة في وقت الشتاء، كل هذه التغييرات والتقلبات عبرة لنا، الملك لله يدبر ما شاء، ملك تام وافٍ، ونعم وافرة منه -سبحانه وتعالى- وتنبيهات واضحة لا يستطيع الإنسان أن ينكرها، (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً) لكن لأولي الأبصار.

ثم يخبرنا الله عن شيء آخر نفكر فيه ونعتني به لنملأ قلوبنا يقينًا، وهذه من صفات أهل القرآن، أنهم ينظرون إلا ما نبههم الله عليه فيفهموه ويخرجون منه بعبرة (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاء) ينبه عباده على ما يشاهدونه، أنه خلق جميع الدواب التي على وجه الأرض مادتها كلها من ماء، مثلما قال تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ).

"فالحيوانات التي تتوالد، مادتها ماء النطفة، حين يلقح الذكر الأنثى. والحيوانات التي تتولد من الأرض، لا تتولد إلا من الرطوبات المائية، كالحشرات لا يوجد منها شيء، يتولد

من غير ماء أبدًا، فالمادة واحدة، ولكن الخلقة مختلفة من وجوه كثيرة، (فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ) كالحية ونحوها، (وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ) كالآدميين، وكثير من الطيور، (وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ) كبهيمة الأنعام ونحوها. فاختلافها -مع أن الأصل واحد- يدل على نفوذ مشيئة الله، وعموم قدرته، ويدلنا أيضًا، مرة أخرى، على أن الحق يأتي وكلّ يتعامل مع هذا الحق بحسب ما في قلبه من إرادة، إن كان يريد الحق فالحق أمامه ينظر فيه ويفكر فيه فيصل إليه، وإن كانت إرادته ليست طلب الحق فيتجاهل ويتشاغل ويتغافل ويأتي بشبه، إلى آخره. فكما أن المطر فيه ماء لطيف ينبت الزرع وفيه برد يقتل الزرع، فكذلك الخلق كلهم خلقوا من ماء واختلفت أحوالهم، مادة واحدة ونتائج مختلفة، سبحان الله ولهذا قال: (يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) هناك شيء يمشي على بطنه، وشيء على رجلين ومنه ما يمشي على أربع مثل البهائم، أي: من المخلوقات، على ما يشاؤه من الصفات، (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) كما أنزل المطر على الأرض، وهو لقاح واحد، والأم واحدة، وهي الأرض، والأولاد مختلفو الأصناف والأوصاف وكما قال رب العالمين في الرعد: (وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ

مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)." كله بماء واحد لكن نفضل بعضها على بعض في أذواق الناس، مع أنها من ماء واحد، وهكذا الآيات أمام الخلق، فهل أنت ناظر بصدق لتصل إلى الحق؟

(لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ) ونحن نشهد أن الله أنزل آيات بينات. (وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) يقول الشيخ: "أي: لقد رحمنا عبادنا، وأنزلنا إليهم آيات بينات، أي: واضحات الدلالة، على جميع المقاصد الشرعية، والآداب المحمودة، والمعارف الرشيدة، فاتضحت بذلك السبل، أنت حولك آيات والقرآن آيات بينات اتضحت لك السبل، وتبين الرشد من الغي، والهدى من الضلال، فلم يبقَ أدنى شبهة لمبطل يتعلق بها، ولا أدنى إشكال لمريد الصواب، لكن المشكلة هي عدم صدق الإرادة، لأنها تنزيل من كمُل علمه، وكمُلت رحمته، وكمل بيانه، فليس بعد بيانه بيان" ولا تطلب بعد هذه الآيات آيات، ألا ترى أن السماء تكون خالية من أي سحابة، ثم يتراكم السحاب متى ما أذن الله. وربما امتلأت السماء سحابًا ثم سار وذهب ولم ينتفع منه أهل تلك الأرض! كل هذه آيات ما فيها أدنى شك. لذلك ليس بعد بيانه بيان،

واستشهد الشيخ بقوله تعالى: "(لِيَهْلِكَ) بعد ذلك (مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) الآيات بينات واضحات، (وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) ممن سبقت لهم سابقة الحسنى، وقدم الصدق، يهدي هؤلاء (إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) أي: طريق واضح مختصر، موصل إليه، وإلى دار كرامته، لأن هذا الذي يفعله الصراط المستقيم، كل الناس يتعاملون بهذه الطريقة، يقولون فيما يمثلون: "الجادة وإن طالت" الطريق المستقيم وإن كنت تتصوره طويلًا.

فهمنا أن المشيئة متعلقة بالحكمة؛ لذلك رب العالمين في سورة الليل أخبر ما الذي يكشف الليل عنا، أخبر (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى) هو بدأ (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) هذا الذي يزيل الليل (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) هذا الذي سيبقى في الليل. هذا الصراط المستقيم الطريق المختصر الذي يوصل إلى الله وإلى دار كرامته متضمن العلم بالحق وإيثاره والعمل به. الهداية علم بالحق وإيثار لهذا الحق والعمل به، عمم البيان التام لجميع الخلق، (لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ) لجميع الخلق، وخصص بالهداية من يشاء، (وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، فهذا فضله

وإحسانه، وما فضل الكريم بممنون وذاك عدله، وقطع الحجة للمحتج، والله أعلم حيث يجعل مواقع إحسانه." كما أنه أعلم أين ينزل مطره، وخيره، وأين ينزل البرد، فالله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

اللهم اهدنا واهدِ بنا وأصلحنا وأصلح ذرياتنا، والحمد لله رب العالمين.

السلام عليكم ورحمة الله